



السنة الثامنة والثلاثون

نيسان - حزيران ١٩٤٠
تموز - ايلول !

دور العلم وبيوت الحكمة

من آثار الاب منري لانس اليسوعي

التصوص العربية القديمة ، الراقية الى القرون الثلاثة الاولى
للهجرة ، كثيراً ما يصادف فيها المطالع كلمة « علم » . فما المراد
بهذه اللفظة ؟ وماذا تمثل ؟ وهل تعني « العلم » بدلوله المصري كما
نقشه في ايامنا ؟

ان الاكثورية الساحقة من هذه التصوص ، ان لم نقل كآها على الاطلاق ،
تعني « بالعلم » فروع المعرفة الدينية ، وهي عارم القرآن ، والقراءات ، والتفسير ،
والحديث ، والتفقه ، وسيرة الرسول . . . وقد يُضاف اليها احياناً الادب واللغة .
وعلى هذا : كان « المالم » الكسائي يلقي دروساً في اللغة بجامع بنهداد^(١) . ولا
يخفى ان الجامع كان يُشخذ لالتقاء الدروس في الفنون المختلفة من هذا « العلم »

(١) باقوت : ..جم الادبا . ٤ : ١٢٥

الديني . ولا شك في ان المحدثين رموا الى هذه المعارف وحدها ، عندما نسبوا الى النبي الحديث المشهور : « اطلبوا العلم ولو في الصين ا »

وليس ما يشير في هذا الحديث الى العلم بالمعنى الحضري . اما ما قيد من طلب الرحلة فيلتحق الي تلك الرحلات البعيدة التي كان يقوم بها بعض طلاب « العلم » في سبيل جمع الاحاديث ، او لقاء شيخ مشهور بالتفسير او بالفقه .

وكان التعليم الملقى في الجامع حرراً من كل نظام ، سهل المأخذ على الجميع . وكان المعلم يحتل مركزاً وسط الساحة ، او تحت رواق ، او قريباً من احد الاعمدة داخل الجامع . فيجتمع حوله السامعون في حلقة .

وكان يلتحق ببعض الجوامع غرف صغيرة يتلها فقراء الطلاب ، او التزلا من المسافرين . وليس من امتحان ولا من منهاج خاص . انا بكتفي الاستاذ بقراءة نص من النصوص الدينية فيشرحه باقتضاب . وقد يلقي ، عن ظهر قلبه ، مئات الاحاديث فلا يتعلم ، ولا يحطى . باسم واحد في تلك السلاسل

الاستاذية المستطيلة . وهو من عجائب الحافظة . وقد ذكر محدثون حفنظرا ٥٠٠٠٠ حديث^(١) يوردونها باسنيدها . واذا ما انتهى الاستاذ من شرح كتاب

او مادة امكنه ان يعطي من اراد من سامعه ايجازة بالمعلم الذي ختمه . ومن فضل هذه الايجازة ان تبيح لصاحبها تعليم غيره ما استفاد من استاذه

الاول . وهي تقوم مقام شهادات اليوم ، وتولي صاحبها سربة « العلماء » .

ولنشر اخيراً الى ان لفظ « علم » الواردة في القرآن^(٢) تدل على المعرفة الدينية او المرحاة ، ليس غير .



والعلم بالمعنى المصري ، او المعارف غير الدينية ، كيف كان يعرفها العرب ؟ وكيف كانوا ينعمون الطب مثلاً ، والرياضيات ، والفلسفة ، والفلك ؟

كانت هذه العارم ، ولا سيما الطب ، في صدر الاسلام ، تروكة لتدبر المسلمين يضطلع بها اليهود والنصارى خاصة . وهذا الجاحظ يقول ان الطبيب الذي يحمل

(١) راجع كتابنا L'Islam, p. 51

(٢) القرآن ١٣ : ٢٢ : ١٨ : ٦٤ : ١٩ : ٤٤ : ٣٨ : ١٣ . . .

اسماً اسلامياً ، يترسّض للموت جوعاً . لأن إقبال الناس كان على الاطباء ذوي الاسماء النصرانية . وقد وضع المسلمون هذه المعارف الدنيوية جميعها على هامش « العلم » ، فسوّها « العلوم القديمة » او « علوم القداما » ، او « علوم الاوائل » ، او « علوم الحكماء »^(١) . ولم يكن التعليم العام الملقى في الجامعات ليهتمّ بها او يثير اليها . وكذلك كانت الحال في « المدارس » — ولا ترقى اقدمها الى ما قبل القرن الرابع الهجري — فكان لا يدرس فيها الا العلوم الدينية . على ان القرظي يذكر بعض الدروس الطبية في الجامع الأزهر بالقاهرة . ومهما يكن من امر فإن تدريس الطب كان يُلقى عادةً في بعض البيمارستانات ، او المستشفيات ، حيث كان الطلاب يزدهجون حول الطبيب الاستاذ ، فيحضرّون تشخيصه وعلاجه ، ريبأون بعض الشروح ، ويحفظون طرق تطيبه حتى يتشروهوا بدرهم في ما بعد . وهكذا كان الطب عملياً اكثر منه نظرياً .

ولا يجتنب ما كان من إعراض « العلماء » والخُص من القها . وارباب السنة عن العلوم الدنيوية ، وازدرانهم بها ، وتحذّرم من اصحابها ، ولا سيما الفلسفة . وكثيراً ما اعتبروها من مدارج الزندقة . وعدّوها مع غيرها من « علوم الاوائل » في طبقة ما قال عنه النبي : « علم لا ينفع » . وهذا ابن تبيّة ، المجادل الشهير ، لا يرضى باستعمال اسم العلم الا للعلوم القرآنية .

☞

وهو ما يقودنا الى ذكر كلمة عن « دور العلم » و« بيوت الحكمة » . وقد يعرف القراء ان هذه « الدور والبيوت » ، على الرغم من اسمها المنمّعة والقابلية الرقيقة ، كانت بميدة كل البعد عن « الجامعات » اليهودية ، بل بميدة عمّا تعرفه من معاهد التدريس .

ولعلّ اشهر هذه البيوت « بيت الحكمة » الذي أسسه المأمون (١٩٨ - ٢٠٢ هـ = ٨١٣ - ٨١٧ م) ، وخاله الكثيرون مدرسة كبرى تدرس فيها العلوم القديمة . اما حقيقته فمكتبة كان يشتمل فيها بعض النصارى فينقلون المؤلفات

اليونانية القديمة.^(١)

ودار العلم التي انشأها في المرسل جعفر بن محمد (٣٢٨=١٣٩-١٤٠)
لم تكن سوى مكتبة يُعطى المشتغل فيها الورق مجاناً^(٢).

وكثير من هذه « الدور » المليئة كانت ترمي الى هدف خاص ، أي ان
اربابها كانوا يجعون فيها عددًا من الكتب في وضع معلوم ، وامين الى نشر
دعوة دينية او الى تعزيز مذهب قهبي . وهكذا القول عن دار العلم التي
انشأها في طرابلس ، قبيل الحملات الصليبية ، بنو عمّار . فان غايةها كانت
نشر الدعوة لمذهب منشئها الشيعيين . وهي غاية مكتبة الفاطميين الكبرى في
القاهرة . ومن النوع نفسه كانت الدار الفسيحة ، المتعددة غرف المطالمة ، التي
انشأها الحاكم الفاطمي فدعاها دار العلم والحكمة .

وهذا كثيراً ما دعا الناس هذه المؤسسات « دور الكتب » و « خزائن
الكتب » وهو لقب ألقب بها من نمت التعليم . ولا ننكر ان بعض الشيوخ
كانوا يلقون احياناً في هذه المؤسسات محاضرات او شروحاً تفسيرية ، انما كان
هذا الأمر يأتي عرضاً ونادراً .

ومنذ القرن الخامس الهجري لا تكاد نسع بتأسيس شيء . من هذه الدور
والبيوت في ديار الاسلام التي .

(١) الفهرست ٢٤٨

(٢) باقوت : معجم الادباء ٢ : ٤٢٠